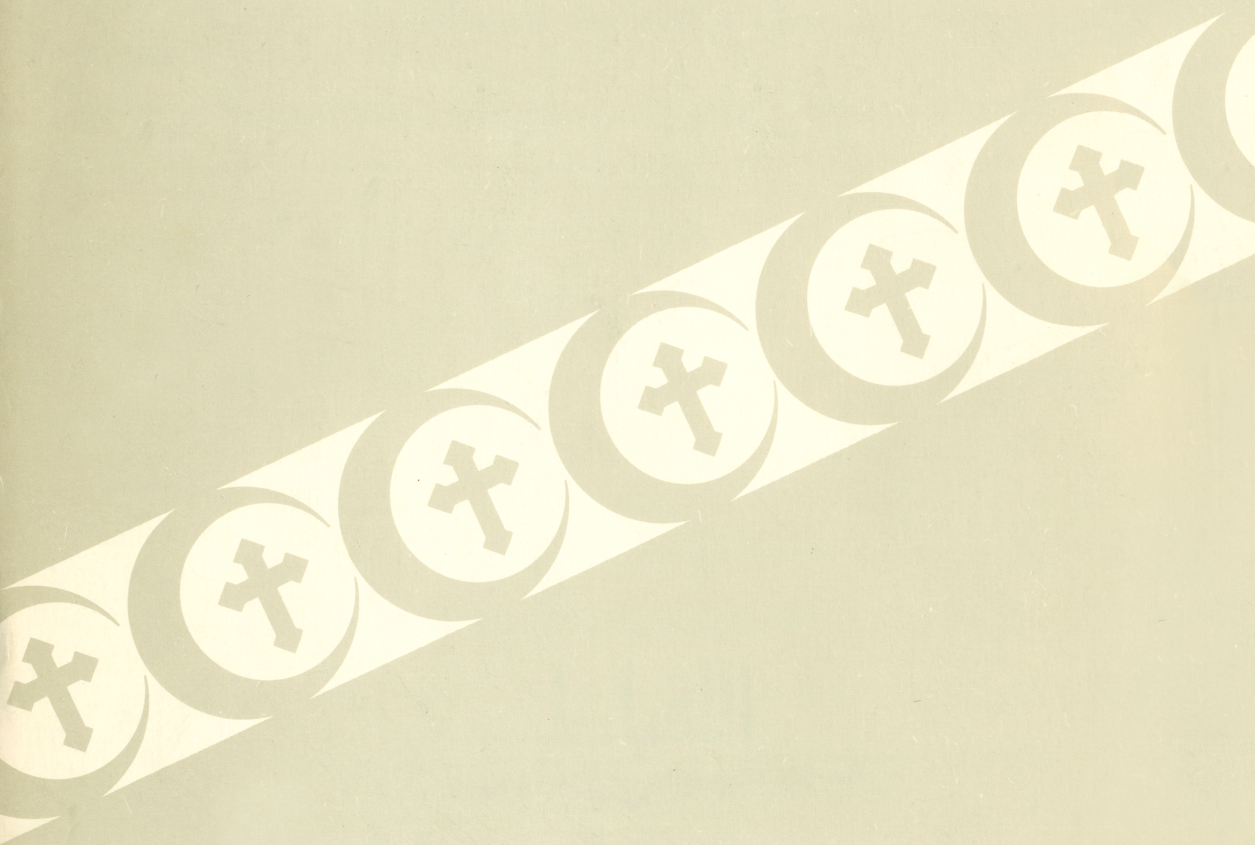


د. مصطفى الفقى

الأقطار

فكر السياسة المصرية

مكرم عبید ودوره فى الحركة الوطنية



دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

منذ عدة سنوات ، كنت أتحدث إلى سياسى بارز من ساسة ما قبل ٢٣ يوليه ١٩٥٢ - وهو قبلى كان من كبار الوفدين مع مصطفى النحاس - كنت استوضحه بعض الوقائع التى عايشها وشارك فيها ومنها مدى المساواة بين المسلمين والأقباط فى تولى بعض الوظائف الخاصة . وكنت فى حديثى أقتبس المواقف بمعيار مطلق للمساواة . فكان الرجل يهدئ من حماسى عن وجوب الالتزام العملى الصارم بالمبادئ المطلقة ، ويتكلم عن الأوضاع التاريخية ، والصياغات الفكرية والنفسية للجاعات ، ووجوب الرعاية والتفهم الودود لكل هذه المكونات والملاءمة بينها . وكان يلفت نظرى الى أنه ان كان ثمة نقص فى مساواة القبط فى بعض الوظائف ، فثمة زيادة لحسابهم فى وظائف أخرى لاتقل أهمية ، وثمة أسباب يتعين فحصها ومراعاتها .

وضرب لى مثلاً بالشافعية ، وهم أصحاب المذهب الغالب بين المسلمين فى مصر ، وقد إختص الحنفية بوظائف القضاء الشرعى كلها دونهم . ومع ذلك لم نسمع شكاة من الشافعية ، ولا وصفوا أنفسهم أنهم يعانون إضهاداً وتفرقة . ولا يكون من الانصاف وصف مصر بأنها تضطهد الشافعية لو أن الحنفيين يمتازون عليهم . وحسب الشافعية وغيرهم الكثير من وظائف الوعظ والارشاد والتعليم .

وأدركت من حديث الرجل الكريم ، كيف يكون الموقف الفكرى والأنسانى لمن أسهم فى قيادة شعب كامل بجموعه كلها ، على كثرة التصنيفات الاجتماعية والفكرية لهذه الجموع ، وكيف تكون النظرة الشاملة والمعالجة الودود البناء لمشاكل أمة بأسرها ، وكيف تمكن المداواة دون استئصال ، ويمكن العلاج دون البتر ، حفاظاً على الجسم كله ، كاملاً وحيّاً ومعافى .

هذا الموقف يظهر في شخصية مكرم عبيد ، الذى خصه الدكتور مصطفى الفقى بهذه الدراسة . والقارئ فى التاريخ المصرى ، يلحظ قلة الدراسات المتعلقة بالوحدة الوطنية ، حتى أن كتاباً ككتاب « جاك تاجر » ظل منفرداً بالساحة أكثر من عشرين سنة ، على ما فى هذا الكتاب من عوار . كما يلحظ القارئ للتاريخ قلة الدراسات المتعلقة بسير القادة الزعماء وخاصة رجال السياسة . ومن هنا تظهر الأهمية المزدوجة لدراسة الدكتور الفقى ، إذ جاءت تحتل مكانها فى هذين المجالين معا . وهى دراسة علمية وموثقة أعدّها عقل مستقيم وقلب شغوف بوطنه ، وتناول فيها سيرة زعيم مصرى تبوأ مكاناً بارزاً فى صدارة الحركة الوطنية المصرية ضد الأستعمار سنوات طويلة فى مرحلة هامة . ومكرم عبيد أسماء المصريين المجاهد الكبير ، وكان سياسياً داعية ومنظماً ومحامياً ، وكان سكرتيراً لحزب الوفد ووزيراً للمالية ، وكان ينتخب عضواً بمجلس النواب ونقيباً للمحامين كلما رشح نفسه . ودراسة الدكتور الفقى ، فيها من الرصانة العلمية ما فيها من الاستقامة المنهجية ما فيها من التواضع الجهم لباحث يكدح فى جمع مادته واختبارها وتركيبها فى سياقها التاريخى ، تم لا يشير ولو باللمح لما اقتضته هذه السلسلة من كد وعناء . ويحد القارئ نفسه مع مكرم عبيد فى خضم السياسة المصرية على مدى ثلاثين عاماً . فيرى زعيماً يتعامل مع الأحداث والجموع بوصفه المصرى دون غيره . ويتعامل معه الأحداث ويتصدى له الرجال بهذا الوصف الغلاب دون غيره غالباً والقارئ قد ينسى فى بعض فصول الكتاب ان مكرم قبطى ، أو قد يتذكر ذلك ثم يتنبه الى ان قبطية مكرم لم تكن عنصراً مؤثراً فى سلسلة الأفعال السياسية وردودها ، المثبتة فى هذا الكتاب . هكذا كان مكرم ، وهكذا كانت استقامة المؤلف فى إثبات وقائع الشخصية المدروسة ، دون اعتساف فى التفسير ولا فى الاستدلال .

وليسمح لى الباحث المحترم ، أن أستغل إستضافته لى فى تقديم هذا الكتاب لأشير الى بعض النقاط . فمن أخطر ما واجه مكرم فى حياته الحزبية ، خلافه مع أحمد ماهر والنقراشى فى سنة ١٩٣٧ ، الذى أسفر عن انتصار النحاس ومكرم وخروج من سموا « بالسعديين » من الوفد . ويبدو لى أن واحداً من أهم أسباب الخلاف ، كان يتعلق بالخط السياسى الذى رأى كل من الطرفين اتباعه بعد ابرام معاهدة ١٩٣٦ . يلحظ ذلك على وجه الخصوص فى أقوال أحمد ماهر وخطبه .

اذ بدأ ماهر يروج لموقف سياسى مؤداه أن إبرام المعاهدة من شأنه أن ينهى سبب الخصومة السياسية التى كانت قد قامت بين فريق سعد زغلول وفريق عدلى يكن فى سنة ١٩٢٢ ، والتى أفضت إلى انشقاق من كونوا حزب الأحرار الدستوريين وقتها . وفى المقابل يظهر من مسلك مصطفى النحاس ومكرم عبيد فيما تلا ذلك من أعوام ، أن معاهدة ١٩٣٦ ، رغم دفاعها الكبير عنها ، لم يكن لها من التداعيات السياسية لديها ، مثل ما كان لها لدى أحمد ماهر ، لأن الوفد كان يتوقع من إبرام المعاهدة لا أن يخفض جناحه ازاء خصومه المحليين كالملك والأحرار ، ولكن أن يشد عليهم النكير ، اذ تضمن له المعاهدة تهدئة مع الانجليز لفترة يتفرغ فيها لما يسميه معركته الدستورية التى يسعى فيها لاستيعاب سلطات الملك لصالح المؤسسة النيابية المنتخبة . كما كان يتوقع خلافاً بينه وبين الأحرار حول طريقة تنفيذ المعاهدة وإدارة السياسات فى هذه الفترة .

وفضلاً عن هذا السبب السياسى الذى انتصر به النحاس ومكرم على ماهر والنقراشى فى ١٩٣٧ ، فى معركتهم الحزبية فلم يستطع ماهر والنقراشى تحقيق هدفها الأسمى وهو السيطرة على الوفد من دون مكرم والنحاس ، فضلاً عن ذلك ، فقد كان لدى مكرم سبب خاص يتعزز به فى حزب الوفد أكثر من ماهر إذ كان الأول يفوق الأخير فى قوة روابطه التنظيمية ، ووثوق اتصالاته بالحزب برئاسة ورجالاً . وكان بيت مكرم أشبه ما يكون واحداً من مقار حزب الوفد يؤمه الاعضاء نهراً و ليلاً . وذلك على خلاف ماهر ، الذى كان رغم ذكائه السياسى غير المعتاد ورغم سابقة ممارسته أعمال الفدائيين ، كان قد صار أميل للاهتمام بحياته الخاصة وبمبتديات الصفوة ومجالسهم .

والأخطر فيما واجه مكرم فى حياته الحزبية ، هو خلافه مع مصطفى النحاس وانفصاله عن الوفد فى سنة ١٩٤٢ . وعلى عادة الدكتور الفقى فى هذا الكتاب ، يحتفل للحدث الهام ويؤليه ما يستحقه من رعاية فى تقصى الأسباب والإحاطة بالعناصر ، ومن ذلك ما هو معروف وصحيح عن دور الملك وأحمد حسنين وغيرهما . ولكن الباحث يضيف إضافتين دلتا على ذكاء المعاشة لوقائع الموضوع واختبار مادته . إذ كان خروج ماهر والنقراشى من الوفد مما احتل به التوازن العضوى فى قيادة الوفد وتحت زعامة النحاس . وقامت الزعامة بتغذية ظهور توازن

جديد بين مكرم وأبي علم والطويل . وهذه ملاحظة دقيقة تتعلق بآليات العمل الزعامي والرئاسي وما يدرج عليه عادة من كفالة قدر من التوازن في المستوى الأدنى ، وألا يكون لجهة واحدة أو فرد واحد من شمول النفوذ ما يستوعب الدور الزعامي أو الرئاسي . ثم يشير الباحث إلى دور أمين عثمان في توسيع شقة الخلاف بين النحاس ومكرم . وإذا كانت صلة أمين عثمان بالسفير البريطاني معروفة ، فإن هذه الإشارة تثير في اذهاننا مدى الاسهام البريطاني في توسيع شقة الخلاف إضعافاً للوفد الذى حالفه البريطانيون أنفسهم في ٤ فبراير ١٩٤٢ ضد الملك .

على أنه رغم غواية الملك لمكرم في هذا الانشقاق ، حتى صار صنيع مكرم في السنين القليلة التالية أحد معاول هدم الوفد كله ، فالذى يذكر لهذا السياسى الكبير ، أنه فيما عدا هذا الصنيع ، لم يجد عن جوهر مواقفه الوطنية ولا عن الخط الوطنى السياسى الذى كان يلتزمه إبان توليه أمانة الوفد . لقد شارك السعديين والأحرار في وزارة ١٩٤٤ ، ولكنه ما لبث في ١٩٤٦ أن خرج من الوزارة ومن الوفد الرسمى الذى كان قد شكل لمفاوضة الإنجليز . رافضا ما رضى به آخرون من مساومات تتعلق بالجللاء والدفاع المشترك . كما يذكر لمكرم ، وهو السياسى المصرى القبطى ، أنه كان من أكثر قيادات الوفد تفهما « للوضع العربى » لمصر منذ الثلاثينات . ومع التسليم طبعاً بالصبغة العلمانية للوفد ولمكرم ، فلعل مكرم كان يبد آخريين في قيادة الوفد مثل أحمد ماهر ، في إدراك أهمية المكون الإسلامى في الوطنية المصرية .

نقطة أخرى وأخيرة ، إذ يبدو لى من هذه الدراسة أن العلمانية هى الوعاء اللازم لتقرير المساواة بين المسلمين والأقباط فى المواطنة ، وأن التناسب طردى فى هذا المجال . وهى نظرة مستفادة مما جرى عليه جيل الوطنية المصرية لثورة ١٩١٩ . ولكن ثمة جانب آخر أرجو ألا تغفل عنه ، وهو أن هذه التجربة قد أفادت ومن شأنها أن تفيد فى ضرب نطاق من العزلة على التيار السياسى الإسلامى ، الذى يرى فى العلمانية ما يتنافى مع مبادئه وعقيدته . وهى نظرة تضع هذا التيار فى حرج بين الهدف المنشود من تقرير المساواة بين المواطنين وإن اختلفت أديانهم ، وبين إسلاميته السياسية ، التى يستمد منها بعضاً من معانى الهوية والانتماء للجماعة وتاريخها . معنى يتغذى بها انتماؤه لمصريته وعروبته .

وإن العلمانية التى توضع كجامع للمسلمين والأقباط تفصم جامعاً آخرًا بين تيار

الوطنية المصرية والعربية ، وبين التيار الإسلامى . وبها نكون فصمنا جماعتنا من حيث اردنا توحيدها . وتجربة الثلاثينات وما بعدها شاهد على ذلك . وأتصور من جهة اخرى أن تحقيق المساواة والمشاركة بين المسلمين والأقباط ، يكون أوضح وأجمع عليه من الكافة عندما يرد مدعوماً باجتهادات المجتهدين فى الفكر الإسلامى وفقهه . لا أن يأتى فى ثوب العلمانية المجهود من هذا الفكر وتياره السياسى وعلى حسابه . وأن تنوع مدارس الفقه الإسلامى وغزارة تجاربه وتراثه ، لهو أرحب من أن يضيق عن استيعاب هذه المنافع .

اهنى الصديق الباحث على جهده القيم النافع . ونتوقع منه بإذن الله دوام التوفيق والعمل المثمر الخصب لأمته .

طارق البشرى

كلمة

تحتل الدراسات المتصلة بالوحدة الوطنية والاندماج القومى أهمية متزايدة على خريطة البحث فى العلوم الاجتماعية لأسباب تتصل بالاستقرار السياسى لعدد كبير من دول العالم الثالث ، ولدنيا فى مصر درجة عالية من الانصهار القومى وتاريخ متميز فى الوحدة الوطنية ، ولقد أغرانى ذلك التصور بأن أتقدم برسالتى للدكتوراة إلى جامعة لندن (والى حصلت عليها عام ١٩٧٧) عن الأقباط فى السياسة المصرية متخذاً من السياسى المصرى مكرم عبید نموذجاً تمضى من خلاله الدراسة عبر مرحلة هامة من تاريخ مصر السياسى فى فترة ما بين الثورتين ١٩ - ١٩٥٢ .

ولقد رأيت أن أترجم الرسالة إلى اللغة العربية حتى تصل إلى يد القارئ المصرى الذى يهيمه ذلك الموضوع بالدرجة الأولى ، وقد حذفت من الترجمة العربية للرسالة بعض اجزائها لأنها مرتبطة بالجانب الأكاديمى للبحث الجامعى ، وقد لا تكون لها ذات الأهمية عند نشرها فى كتاب ، كما رأيت أيضاً ألا ضرورة لنشر قائمة المراجع والمصادر التى استعنت بها فى أعداد الرسالة مكتفياً بذكر بعضها فى هوامش الكتاب .

ولا يفوتنى أن أذكر أن الرسالة التى أعددتها والتى يحوى هذا الكتاب معظم أجزاءها قد اكتملت بأشراف البروفسور فاتيكيوتسر، أستاذ العلوم السياسية الشهير فى جامعة لندن واحد كبار المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط مع إهتمام خاص بما يتصل بالتاريخ السياسى المصرى المعاصر ، كما أننى أشيد بالجهود التى بذلها الاستاذ طارق البشرى فى اعطاء دراسات الوحدة الوطنية المصرية دفعة واضحة فى السنوات الأخيرة على نحو أثرت به المكتبة العربية التى نقدم لها هذا الكتاب فى تواضع ليكون اضافة محدودة إلى جانب دراسات متعمقة سبقت إلى البحث فى هذا الموضوع المتميز ، وقد تفضل المستشار طارق البشرى فقدم لهذا الكتاب فى سطور تعطيه قيمة أكثر لأنها جاءت من مؤرخ باحث اقتحم ميدان التاريخ السياسى من باب الشغف والهواية فتفوق على كثيرين ممن تخصصوا فيه وتفرغوا له .

د . مصطفى الفقى

مقدمة

تبلورت أهداف الحركة الوطنية المصرية الحديثة - على الرغم من الاختلافات بين الأحزاب السياسية والقوى الاجتماعية قبل عام ١٩٥٢ - في هدفين رئيسيين هما الاستقلال والدستور .

ونظرًا للتباين الشديد في وجهات نظر أولئك الذين تناولوا فترة ما بين الثورتين ١٩ - ١٩٥٢ بالدراسة فإننا سوف نتخذ تلك الفترة لتكون بمثابة الوعاء التاريخي الذي يتحرك في إطاره موضوع هذا الكتاب ، إذ كانت الأحزاب السياسية نشطة وفعالة في مسعاها من أجل الاستقلال والدستور وكذلك كانت ظروف الحياة السياسية في مصر خلال تلك الفترة خاضعة للتأثير المتبادل والنفوذ المختلف للمحاور الرئيسية على مسرح الحياة السياسية في مصر حينذاك وهي القصر الملكي وسلطة الاحتلال البريطاني والأحزاب السياسية وإن اختلفت أحجام شعبيتها وفعاليتها سياساتها .

وتتميز بين المواقف الوطنية للحركة الشعبية المصرية في ١٩١٩ وما بعدها دور الأقباط فيها واستمرار ذلك الدور من خلال موقعهم في حزب الأغلبية ، حزب الوفد ، كتعبير عن إسهامهم الذي لم ينقطع في الحركة الوطنية المصرية ، ويمثل بالنسبة لنا الدور السياسي لمكرم عبيد - من بين الزعماء الآخرين سواء الأقباط منهم أو المسلمين - جاذبية خاصة ومدعاة لإهتمام متميز إذ كان مكرم عبيد نموذجًا يمكن التركيز عليه لدراسة دور الأقباط في الحركة الوطنية المصرية ومتابعة ذلك الدور من خلال المسيرة السياسية لمكرم عبيد الذي أستمرو نشاطه السياسي دون توقف على امتداد الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ كما كان مكرم عبيد هو السكرتير العام لحزب الأغلبية لفترة أمتدت قرابة خمسة عشر عامًا ، فقد بدأ دوره المرموق في الحركة الوطنية كواحد من مؤيدي زعيم الثورة الشعبية في ١٩١٩ ، سعد زغلول ، وقد اعتمد مكرم عبيد في الوصول إلى مكانة خاصة ولون متميز بين السياسيين في تلك الفترة على تمتعه بمعظم المؤهلات والمواهب التقليدية التي انتصف بها السياسيون المصريون في وقته ، فكانت لديه القدرة - وهو الخطيب البارع والكاتب المجيد على التأثير في الرأي العام وتحريك مشاعر الجماهير كما أبدى حذقا وبراعة عظميين في مناورات الحياة السياسية .

ويعتبر مكرم عبيد - في تكوين شخصيته ومسارحياته السياسية - تجسيدا حقيقياً لفكر ومشاعر وطموحات فرد ينتمى إلى أقلية دينية هي جزء لا يتجزأ من وطن ينتمى إليه بالدرجة الأولى ولعل ذلك يفسر اندفاعه وتطلعه للقيام بدور سياسى مؤثر على المستوى الوطنى كله ، كذلك فإن حياة مكرم عبيد السياسية تعد انعكاساً حقيقياً لواحد من افرازات الفترة التى تمتعت فيها مصر بنصيب كبير من الأفكار الليبرالية والعلمانية التى أعطت للحركة الوطنية - خاصة فى سنواتها الأولى - شخصية متميزة باحتوائها للمسلمين والأقباط معا وتقديمها حلا عمليا وتجربة تاريخية فيما يتصل بقضية الأقليات عموماً ، لذلك فإن مكرم عبيد يمثل أحد الظواهر التى نشأت فى ظل المناخ الليبرالى العلمانى الذى عرفته مصر الحديثه .

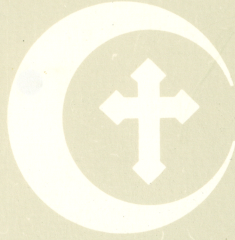
وليس من شك فى أن التغيرات الكبيرة والتطور الراديكالى الذى طرأ على النظام السياسى وانعكس على الجو الاجتماعى منذ ولاية محمد على الكبير وربما قبل ذلك بيضع سنين وبالتحديد منذ وصول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بوناپرت ، إن هذه التطورات قد صنعت مناخاً سياسيا واجتماعياً هو بمثابة الميلاد الحقيقى لمصر الحديثه ولولا ذلك ما كان يمكن أن ينطلق التيار الوطنى الليبرالى الذى يعتبر مكرم عبيد واحدا من نتاج وجوده. كذلك فإن مكرم عبيد أيضا هو انعكاس صادق للروح القومية والحيوية التى دبت فى الحركة الوطنية بزعامة سعد زغول ، ولقد تميزت روح تلك الفترة بوضوح فكر سياسى مصرى خالص متحرر من أية مؤثرات دينية وغير مرتبط بأية قوى خارجية وملتمزم باستقلال مصر الكامل. وعلى ذلك فإنه يمكن القول أن سعد زغول قد سعى إلى إيجاد حشد ضخم من أبناء مصر المؤهلين لقيادة الحركة الوطنية - بغض النظر عن جذورهم الاجتماعية أو انتماءاتهم الطائفية - مكثفيا بأيمانهم بأمة مصرية واحدة تسعى إلى تحقيق الاستقلال والوصول إلى حكم الدستور. وبذلك تختلف الروح الزغلولية فى جوهرها عن فكر الحزب الوطنى وحزب الأمة اللذين سبقاه ، لأن الأول قام على أساس التسليم بالارتباط بين مصر المستقلة والخليفة أمير المؤمنين لذلك لقي فى الأساس تشجيعاً من عاصمة الخلافة العثمانية بينما كان الثانى تعبيراً سياسياً عن صفوة من المصريين وملاك الأراضي ذوى الملكيات الزراعية المتوسطة بالإضافة إلى بعض المثقفين والذين حصلوا درجات علمية من الخارج من أبناء العائلات الريفية وأعيان البلاد .

وقد جذبت التوجهات الوطنية الخالصة التى انتهجها سعد زغول الأقلية القبطية إليه ومكنتها - ربما لأول مرة - من أن تصبح عنصرا فعالا فى الحياة العامة المصرية والمشاركة فى صنع الأحداث السياسية لتلك الفترة .

ويعنى أن أوضح أن الأهتمام بالجانب الدينى فى هذا الكتاب لا ينصرف إلى المعتقدات الروحية ولكنه يهتم بها فقط من حيث هى أسلوب حياة ونموذج ثقافه يؤدى إلى تركيب فكرى معين وخلفية بذاتها تبدو واضحة فى تفاعلها واستجابتها وردود فعلها للآراء المختلفة والأحداث المتعددة ، كما أنها تتدخل فى تحديد شكل العلاقة بين الفرد ومجتمعه فى مواجهة السلطة القائمة .

وهكذا فأن هذه الدراسة سوف تبحث فى عدة عناصر بعضها سياسى والبعض الآخر اجتماعى أو دينى كما أن هذا البحث لا يعتبر تأريخاً للأحداث على الرغم من أن التاريخ هو الذى يقدم خلفية الحقائق ومادة الأحداث .

أنها محاولة لتتبع دور الأقباط فى الحياة السياسية المصرية من خلال متابعة السياسى المصرى القبطى مكرم عبيد عبر مسيرة من العمل الوطنى والحزبى تمتد لقراءة ثلاثين عاما. كما أنها تسعى لدراسة دوره البارز فى الحركة الوطنية والذى أقترن بطموح فردى عظيم والتزم بالظروف المحيطة به وتجاوز حدود طائفته ليكون تعبيرا عن الوجود الشعبى للأقباط فى الحركة الوطنية المصرية الحديثة .



الأقباط

فك السياسة المصرية

- هذا الكتاب هو خلاصة دراسة علمية وبحث متميز يضع قضية الوحدة الوطنية المصرية في إطارها الموضوعي السليم ، وسياقها التاريخي الحقيقي ، وقد جاء مدعماً بالوثائق الأصلية ، مركّزاً على المصادر الجادة .. ليقدم التجربة الفريدة التي عرفتها مصر على امتداد القرون للتعايش القائم على المشاركة بين أبناء الشعب الواحد في مسيرة تاريخ طويل ، مبرزاً دور الأقباط كجزء من نسيج مصر من خلال متابعة الدور الوطني لواحد من أبرز الشخصيات في التاريخ السياسي المصري الحديث قبل عام ١٩٥٢ .
- إن هذا الكتاب يرد على مزاعم دعاة الطائفية السوداء . ويرد على الذين ينساقون وراء تيار التعصب الأعمى . ويؤكد أن مصر العريقة تحمل في ذاكرتها الوطنية أرحب تجارب الإنسان منذ التقت على أرضها الديانات وامتزجت فوقها الثقافات ..